الأنوار ١٩/٧/١٩٩٦

مخائيل نعيمه في حديث غير منشور: نموت ونعود الى الحياة لنحقق المعرفة

منذ عشر سنوات، وتحديدا في التاسع عشر من شهر تشرين الاول اجتمعنا في منزل الاديب مخائيل نعيمه، في الزلقا (قرب بيروت) لمشاركته الإحتفال البسيط بعيد مولده.

رحب وشكر، وجلس في المكان المخصص له بين الاصدقاء القلة، يصغي الى كل كلمة، ويجيب عن اسئلة تتشعب وتتنوع:

– «ربي كريم معي. صحيح ان جسمي تعب، لكن معنويات الروح والعقل مرتفعة وجيدة».

● ماذا تفعل الآن؟

□ استريح، واراجع ما كتبت. اطالع ولا اشعر انني بحاجة الى تغيير اية كلمة في مؤلفاتي. فقد اصحح الاخطاء المطبعية.

لقد هجرت الكتابة منذ العام ١٩٨٢، اعتقد ان الذي كتبته يكفي.

● ... وماذا تنتظر بعد؟

□ كل مركب مصيره الى الإنحلال، ولان اجسادنا مركبة فمقضي عليها ان تنحل، اما الروح الذي يحيي الجسد، فليس بالشيء المركب، لذلك فهو لا ينحل بإنحلال الجسد، بل يبقى ما بقي الزمان. وهو لا يلتبس الجسد إلا ليكتسب خبرة ما كانت له من قبل، حتى اذا اكتملت خبرته بات في غنى عن التجسد، واتحد بالله اتحادا لا انفصام بعده.

حبذا الموت لو كان الموت باباً الى اكتشاف حقيقة الوجود، ولكنه في الواقع باب الحياة الاخرى، تتكشف لنا فيها بعض جوانب الوجود التي كانت محجوبة عن ابصارنا. وفي اعتقادي، اننا سنبقى نموت ونعود الى الحياة، الى ان نحقق اقصى ما نصبو اليه من المعرفة التي لا يفوتها علم شيء، ومن الإرادة التي ليس فوقها ارادة، ومن الوجود الذي بمنطق الازل والابد.

... وينتقل نعيمه من موقع المجيب الى موقع السائل:

«كيف تتصور حياة الصبي الذي كنته في بسكنتا، ثم انتقل الى الناصرة في فلسطين لمتابع دراسته، ومنها الى روسيا، وبعدها الى اميركا؟ كيف تتصور هذه المراحل وفي بلدان مختلفة من دون معرفة سابقة لهذه البلدان؟

الإنسان لا يعرف حياة واحدة، ولو فكرنا في الفضاء الذي يتسع لكل الالوان، واعدادا تقاس بملايين الملايين، لوجدناه يمثل لنا الحياة التي لا نعرف لها بداية او نهاية (...) انا الآن في منزلي في الزلقا، ومؤلفاتي تقرأ في هذه اللحظة بالذات في الصين واليابان واميركا وروسيا، وفي كل الدول العربية. اذا، انا موجود الآن في كل هذه الامكنة من دون ان ادري».

● كيف تنظر الى الوجود؟

□ نحن نعيش في عالم لا يستقر على حال. فهو في تحول مستمر، ذلك هو شان المحسوسات. فارضنا اليوم هي غير ما كانت عليه قبل الف سنة. وكذلك هي الحال مع الشمس وكل كوكب يدور في الفضاء. يبقى الفضاء وحده، فهو يبدو مستقراً لا يتغير ولا يتبدل. هذا الفضاء هو الحقيقة الازلية الابدية التي منها كل منظور ومحسوس، من بعد ان يؤدي وظيفته بالنسبة الى الفضاء. وكما انه ليس خارج الفضاء ما يمكن ان يدخل اليه، ولا في الفضاء ما يمكن ان يخرج منه، كذلك هي فكرة الله الازلي السرمدي الذي هو الزمان كله، والوعي كله، والإرادة كلها، فلا يمكن ان يضاف اليه او ان يؤخذ منه اي شيء.

تتبدل المحسوسات ضمن الفضاء، اما الفضاء فلا يتبدل ولا يتغير. ولانه لا يحد فنحن لا نستطيع إدراكه بعقولنا المحدودة، بل بقوى فينا تفوق

مخائيل نعيمه

العقل بكثير، من هذه القوى قوة التخيل التي بها ندرك ابعادا لا نستطيع ادراكها بالعقل. ونحن لو كانت لنا الإرادة الى جانب قوة التخيل لاستطعنا ان نحقق الخلود الذي نصبو اليه بكل جوارحنا. ولكننا ونحن في التفتح حيث نحن، لا نزال في الطريق، وامامنا مسيرة بعيدة وطويلة، واي باس في ذلك، ما دام الزمان كله مجالنا لبلوغ الهدف.

● هل في استطاعة الإنسان ان يتخلى عن مفهوم الوطن؟

□ لا... لا... وهذا يعني ان عليه ان يسعى سعيا دائما ليجعل الارض كلها وطنه، بل ليجعل الكون كله وطنه. وقبل ان يتم له ذلك ستبقى حياته حياة صراع وكفاح، الى ان يدرك المغزى البعيد في قول الشاعر:

«وتحسب انك جرم صغير
وفيك استوى العالم الاكبر».

... وقبل ان يكتشف الإنسان ذلك العالم الاكبر، المنطوي فيه، ستبقى حياته كفاحا في سبيل الوطن الصغير الذي لا قيمة له الا بنسبة ما يتمم الوطن الاكبر.

في الوطن الاكبر يصبح كل انسان عاملا، غايته الحفاظ على ذلك الوطن تماما كما تعمل النحلة في خليتها للحفاظ على هذه الخلية. فهو إذ يعمل لنفسه يشعر اعمق الشعور بانه يعمل لغيره مثلما يعمل غيره له. وهذا يعني ان نفسه تمتد وتمتد الى ان تسع كل نفس، فهو لنفسه ولغيره في ان معا، ولا من كل إنسان حارسا لاخيه، على عكس ما فعل قايين عندما قتل اخاه هابيل. وعندما ساله الله عن اخيه اين هو، اجابه: «هل انا حارس لاخي؟».

إن حياة المجتمع تقدم على حياة الفرد، فإذا اصطلح الفرد اصطلح المجتمع. لذلك فالمجتمع الصالح هو المجتمع المكون من افراد صالحين ولذلك ينبغي ان نهتم بالفرد لنجعله صالحا إذا نحن شئنا ان يكون لنا مجتمع صالح.

● الاحداث العنيفة تجتاح العالم، كيف تفسر ذلك؟

والإقتصادية لا قيمة لها على الإطلاق الا على قدر ما تساعد الإنسان في بلوغ هدفه. فهو ان استعملها كدرجات يرقى بها الى ذاته، كانت خيرا وبركة. وهو ان استعملها كحاجات لها قيمة في ذاتها، فالوقت الذي يصرفه عليها وقت مهدور، لانه يؤخر سيره الى المعرفة الكاملة، والقدرة الكاملة، والديمومة التي يتلاشى في رحابها الزمان والمكان.

* * *

... ويتوقف الكلام. يقول مخائيل نعيمه ليطفىء خمس شمعات، وليسمع الكل يقول ويغني: «سنة حلوة»، مشفوعة بالتمنيات لصاحب العيد.

يشكر كل فرد، يبتسم، ويقول بهدوء تام وكانه يختصر كل فلسفته:

– لقد جعلتم لهذا العيد قيمة. لم اكن اهتم بعيد مولدي، لانني لست من الذين يعتقدون بان العمر يبدأ بالولادة وينتهي بالموت.

ان عمر الإنسان يمتد ما امتد الزمان. وإذا كان لنا ان نعرف غاية الإنسان من وجوده، فما علينا إلا ان نفتقد الاشواق التي تلازمه منذ ان يولد حتى يموت... اني ارى الإنسان يرتقي، يتقدم، ولو ببطء. كم يلزمه بعد؟ لا اعرف. الزمن خدعة ولن يفنى الإنسان قبل ان يبلغ الهدف الذي يصبو اليه.

يختم: اتقبل كل ما يحصل في الدنيا بمنتهى الرضى. واقول لا يحصل اي شيء إلا وقت ما يجب ان يحصل.

مروان العاصي